مدخل مفاهيمي : عن المنهج والتحليل

1-مفهوم المنهج :

المنهج لغة هو الطريقة التي يسلكها المرء بغية الوصول إلى غاية معينة ، و هو السبيل الذي يُتدرج عبره للوصول إلى الهدف و البغية.يقال " نهج الطريقُ ـَ نهجاً : وضَح واستبان ، ونهج الطريقَ : بيّنه ، وسلكه ، ويقال : نهج نهْج فلان : سلك مسلكه ، وانتهج الطريقَ : استبانه وسلكه ، و استنهج سبيل فلان : سلك مسلكه ، والمِنْهاج : الطريق الواضح والخطّة المرسومة ، ومنه : منهاج الدراسة ، ومنهاج التعليم ونحوهما ، (ج) مناهج ، والمنهج : المنهاج (ج)مناهج . " [1] أما اصطلاحا فالمنهج يرتبط كما نعلم بالطريقة العلمية – العقلية التي يسلكها الدارس أثناء تحليل ظاهرة أو مجتمع أو نص. و لعل الفضل في التأسيس لهذا المفهوم يعود إلى ديكارت في كتابه "مقال المنهج ".حيث كان التركيز على قضيتي العقل و التجريب لتحقيق فهم أمثل للأشياء.و كان مبدأ ديكارت الأساسي الشك للوصول إلى اليقين ، و لهذا التفكير الديكارتي " سمة أساسية و هي أنه لا يقبل القضايا على علاتها انطلاقا من شيوعها و انتشارها ، بل إنه يختبرها و يدلل عليها بالوسائل التي تؤدي إلى سلامتها و صحتها " [2]

---

[1]- معجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، 1989، ص 636.

[2]- ينظر صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، مصر ، ص09-10.

و المنهج في النقد الأدبي وليد مرحلة الحداثة التي أصرت على التفسير العلمي لكل الظواهر بما فيها الظاهرة الأدبية . إنه مجموعة الإجراءات و الآليات التي تحاول تفهم النص الأدبي و مكوناته، بإتباع مجموعة من الخطوات الموضوعية التي تختلف باختلاف المناهج . غير أن هذا لا يعني في النهاية أن المنهج " مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة و فحصها ، أي مجرد خطة مضبوطة بمقاييس و قواعد و طرق تساعد على الوصول إلى الحقيقة ، و تقديم الدليل عليها . هذه مجرد أدوات إجرائية و هي لا تمثل إلا جانبا واحدا من المنهج ، الجانب المرئي من المنهج " [3] إن المنهج أبعد من هذا هو " منظومة متكاملة تبدأ بالوعي و الرؤيا المشكلتين لروح المنهج و كنهه اللامرئي " [4] و لهذا تختلف القراءات التطبيقية للنصوص من قارئ إلى آخر حتى و هما يطبقان المنهج نفسه.إن الفعالية النقدية عموما تقوم " على اعتبار أن الآثار الأدبية غير كاملة التحقق في مقابل الإبداع الشعري الذي يظهر الطبيعة بوصفها أيضا غير كاملة التحقق" [5]. و الواقع أن الثقافات المختلفة طرحت دائما إشكالية تطبيق المنهج العلمي في العلوم الإنسانية و منها الأدب، و كان السؤال الجوهري دائما: هل يمكن بحق أن يصير النقد علما ؟

---

[3]- عباس الجراري : خطاب المنهج ، منشورات الهلال العربية للطباعة ، الرباط ، المغرب ، ط2 1995 ، ص 90-91

[4] - نفسه ن ص91.

[5] –Jérome Roger : La critique Littéraire ,Armand Colin ,2013, p05.

و لعل الإجابة على مثل هذا السؤال تختلف باختلاف التيارات الأدبية و القناعات الفكرية للنقاد ، ففي النقد العربي مثلا يذهب محمد منذور إلى أن قوام النقد هو الذوق ، " الذوق المعلل في حدود الممكن" [6]فلا ضير أن يستفيد الناقد من المعارف المختلفة أثناء قراءته للنصوص و لكن القول الفصل في الأدب و النقد يعود إلى التذوق ، تلك الحاسة السحرية التي تقدر وحدها على ملامسة الجميل و الجمالي في الأشياء. و على خلاف ذلك يذهب زكي نجيب محمود إلى أن النقد علم و مرجعه العقل المحكوم بالضوابط المنهجية الصارمة ، لا الذوق الفردي الذي يسهم في نشر الفوضى النقدية و لا يفيد النقد في شيء.[7]و الواقع أن زكي نجيب محمود متأثر بالحركات العلمية التي ظهرت في أوروبا مع مرحلة الحداثة التي كان من نتائجها ظهور المناهج النقدية التي تتشدق بالعلمية المطلقة . و سنقف فيما يأتي عند مصطلح الحداثه بدوره.

مفهوم الحداثة : الحداثة لغويا من " حدث الشيء حدوثا و حداثة و أحدثه فهو محدث و حديث و كذلك استحداثه " [8] و لقد ارتبطت تاريخيا بعصور التنوير الأوروبية التي آمنت بالتفسير العقلي للأشياء فثار رواد التنوير على سلطة الكنيسة ممجدين العقل و رافضين كل تفسير غيبي للظواهر و الأشياء .كما ارتبطت الحداثة مفهوميا بحركات القطيعة و المفارقة و ابتداع النمط " الخاص" في التفكير و الكتابة و العيش . يقول

---

[6]- محمد مندور : الأدب و فنونه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، مصر ، ص165.
[7] ينظر زكي نجيب محمود : قشور و لباب ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، 54 و ما بعدها.
[8]- ابن منظور : لسان العرب ، المجلد2 ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 1955، ص131.

جان بودريار "ليست الحداثة مفهوما سوسيولوجيا أو مفهوما تاريخيا بحصر المعنى ، و إنما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد " [9] و تشمل هذه المعارضة الجانب التقني و الاقتصادي و السياسي و الاجتماعي و الفلسفي و الأدبي ...إلخ. و لعل الميزة الأولى للحداثة في هذا المستوى هي الذاتية أي " مركزية و مرجعية الذات الإنسانية و فاعليتها و حريتها و شفافيتها و عقلانيتها "[10] و تتحقق هذه المركزية و تلك الفاعلية بطبيعة الحال في الفضاء المقابل لفضاء الجماعي و المشترك و المألوف ، إذ تتخلى الذات عن هامشيتها (و هي هامشية تفرضها مركزية الرؤية الجماعية) لتحتل المركز : مركزية الرؤية ، مركزية البصمة و مركزية الفعل الإبداعي ، فتجانب المعيار الذي هو اتفاق ضمني جماعي و تقول الخاص الذي هو وعي جمالي فكري جديد . و تبدو الحداثة بهذه الصيغة " كما لو كانت حالة تحد مستمر و جدلي في المهام التي يطرحها عليها تطور المجتمع و العالم ...إنها أقرب إلى أن تكون في كل مرة قطيعة مع ما سبق و استتب نموذجا تقليديا ، إنها تحول و خروج عن السائد و المألوف " [11] و الحقيقة أن هذه الخصوصيات الحداثوية لا تتعلق بزمن دون آخر ، بل قد نجد نصوصا بعيدة في التاريخ تفارق تاريخها بشكل خلاق و تتمتع بهذه المواصفات أو ببعضها على الأقل و على العكس من ذلك قد نجد نصوصا حديثة زمنيا لكنها تفارق أيضا تاريخها بشكل انكساري فتختبئ في جمالية الماضي البعيد

---

[9] - محمد برادة : اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة ، مجلة فصول ، القاهرة ، المجلد 4، العدد2، ص 12

[10] - محمد يحي فرج : التحليل الفلسفي للحداثة ، منشورات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، مصر ، ص21.

[11] - سامي سويدان : جسور الحداثة ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ،ط1 1997، ص10.

الماضي المقدس بالضرورة مما يفقدها روح الإبداع . و على العموم فالحداثة النقدية انقلبت على تاريخ التلقي الذي كان غالبا انطباعيا مشدودا إلى الأشكال الإبداعية التي ترسخ النموذج السائد ، و شددت على القراءة العقلية التي تتسلح بالصرامة المنهجية فشاعت بذلك النظريات التي تؤسس لعلمنة النقد و لعل تلك الجهود اكتملت مع النقد البنيوي الذي مثل قمة التشدق بالموضوعية و العلمية.

لكن هذا التحول المعرفي الذي أسس لمفهوم جديد للنقد الأدبي و انبثقت عنه مناهج عدة تقارب الظاهرة الأدبية قد طرح بالإضافة إلى إشكالية علمية النقد إشكالية أخرى ترتبط بالسؤال الآتي: بأي منهج نواجه النص؟ و بعبارة أخرى هل تصلح كل المناهج لكل النصوص أم أن النص هو الذي يفرض المنهج مما يعني أن لكل نص طبيعة خاصة تجذب إليه منهجا دون آخر؟ و الواقع أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة تختلف ما بين مدع أن المنهج بإجراءاته العلمية صالح لكل النصوص و بين اتجاهات أكثر ليونة تقر بكون النص صالحا لتطبيق آليات منهجية بعينها و لا يمكن أن يستجيب لآليات منهج آخر إلا من باب تعنيفه و إرغامه على قول ما لا يحتمل .و تضاف إلى هذه الإشكالية إشكالية أخرى في الثقافة العربية تتعلق بسؤال الخصوصية : هل يمكن تطبيق هذه المناهج الغربية المنشأ على الأدب العربي الذي يمتلك خصوصيته المختلفة حتما عن خصوصيات الآداب الغربية ؟ يذهب سعد البازعي إلى أن الناقد العربي الذي يتعامل بهذه المناهج الغربية مضطر إما إلى تبني تلك المناهج كما هي دون تحوير

و في الغالب يؤدي ذلك إلى سوء فهم النص الأدبي العربي موضوع التحليل النقدي و إما إلى إحداث تغيير جوهري في المنهج الغربي حبا بالنص العربي و في هذه الحالة سيفرغ المنهج من أصوله الفلسفية و المعرفية و يقدم خليطا منهجيا يصعب تصنيفه ،و لعل هذه الإشكالية كانت وراء انقسام الفكر العربي المعاصر إلى قسمين، قسم متحمس للحداثة الغربية متبن لمقولاتها بالجملة، و قسم رافض لها جملة و تفصيلا و باحث عن الحلول المعرفية في التراث النقدي العربي القديم .